الفصلُ الأول

أمَّا قَبلُ
بيْن يدي السُّورة
مُراجعاتٌ مَنهجيّةٌ

ممَّا يحرصُ عليْه أهلُ العلم قبل تدبّر سورةٍ من السّور استجماعُ شأنِ هذه السُّورة ، وما يتعلّق بنزولِها زمانًا ومكانًا وسببًا عامًّا أو خاصّا ، وموقعها بين السُّور في سِياقِ النّزول ، وسياق التّرتيل ، ومقدار عدد آياتها ، وكلمها ، بل وحروفها ، وما وردَ من رواياتٍ صحيحةٍ في تلاوتِها ، وما ورد من صَحيحِ السّنةِ في فضلِها . وغيرُ ذلك كثيرٌ ممّا تزخرُ به أسفارُ علومِ القرآن الكريم ، وأنت لا تجدُ كتابًا في النَّاس قد عُنِي به أهلُه وغيرُ أهلِه كمثلِ ما أنت تجدُ القرآنَ الكريم .

وكذلك لا تجدُ كتابًا قد تنادَى غيرُ المؤمنين به وتكاتفُوا وبذلوا من جهدهم وأموالهم وأعمارهم في تثوير الإفكِ والشُّبهاتِ الواهنةِ حولَه في عقُول الدّهماء من غيرِ المؤمنين به ومن أَشباهِ المؤمنين بِه ، ولم يستطِيعُوا برغمٍ مِن ذلك أن يصِلُوا إلى شيْءٍ مما يَطمحُون الوصُولَ إليه كمثل ما أنت تجدُ القرآن الكريم ، فإنّ اللهَ سُبحانَه وتَعَالَى الّذي تكفّلَ بإنزالِه على النّبيّ مُحمّد صَلّى اللهُ عليْهِ وَعلَى آلِهِ وصَحبِه وسلّم هو الذي تكفل بحفظِه: ﴿ **إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ** ﴾ (الحجر:٩)

ومن عواملِ حفظِه حملُ العلماءِ الأثباتِ إلى التعبّد بالعناية بتعلّمِه وتعليمِه واستفراغِ الجُهد والعُمرِ في إتقان البُحوثِ العِلميّة الرَّصينة المُتعلّقة به .

وحُسنٌ أن أُوجزَ هنا شيئًا من شأن هذه السُّورة لعلّ في ذلك ما يُعينُ علَى حسن التَّلقّي والفَهمِ عن الله سُبحانَه وتَعَالَى .

* * *

اسمها :

ممّا عُنِي بِه أهلُ العلم بالقُرآن النّظر فِيما سُميت به السُّور ، وما هُو مرفُوع إلى النّبيّ صَلّى اللهُ عليْهِ وَعلَى آلِهِ وصَحبِه وسلّم ، وما هو موقوفٌ على الصحابة رضِيَ اللهُ عَنهم ، وما هُو من تسمية التّابعين والأئمة من أهل العلم .

وهم إذ يشتغلون بذلك إنّما يبعثُهم علَى ذلك علمُهم أنّ في التّسمية ما يهدِي إلى خصُوصيّةٍ فِي هذِه السّورة ، وهذا يعنِى التفاتَهم إلى أنَّ اسمَ السَّورة عُنصرٌ من عناصرِ بَراعةِ استهلالِها .

و«بَراعةُ الاستهلال» في عِلمِ العربيّة مِن معالِم تماسُك البيان وتلاحظِ معانِيه وانصرافِها إلَى مَأَمٍّ ومَحَجٍّ وَمركزٍ تدورُ عليْه هذِه السُّورة ، واسمُ السُّورة ، وعُلوانها (عنوانها) هادٍ في لُطفٍ إلَى مَعلمٍ مِن معالِم ذلك المركزِ .

وهُم بذلك الفهمِ كانوا أسبقَ إلى فِقه خصائصِ البيانِ العالي البديعِ ، بل العَليّ المُعجز ، فهم أهل البلاغةِ فهمًا وإفهامًا ولم يكونُوا قطُّ عالَةً علَى غيرِهم فضلاً عن أن يقتاتُوا فُتاتِ موائد الأعاجم ورجيع الأُممِ في العلمِ بأصُول فهم البيانِ العالِي ومناهجه ، كما يفعل المُحدَثون من النقدة والمثقّفين .

سُميت هذه السّورة سورة «تبت» وسورة «المسد» وسورة «اللهب» وهذه التَّسمية لها علاقة بمركز المعنى في السورة ، فكلٌّ من هذه الأسماءِ الثلاثة تلفتُ إلى ما يكون مصيراً لكلِّ من عَرفَ الحقَّ وعاندَه استكباراً في الأرضِ ، فقد كان أبو لهبٍ عالمًا بأنَّ ابن أخيه سيدنا مُحمد صَلّى اللهُ عليْهِ وعَلَى آلِهِ وصَحبِه وسلّم على حقٍّ مبين ، وأنّه صادقٌ في كلّ ما ينبئُ بِه ، ولكنَّه تحت تأثيرِ امرأتِه عليْه عاند واستكبرَ ، فكان على طريقِ إبليس الذي ما مَنعه مِن السُّجودِ طاعةً لله ربّ العالمين سِوَى استكباره .

﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُواْ لِأَدَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ (البقرة:٣٤)

وسورةُ (المسد) مكية نزلت في السَّنوات الأولى من البعثة :

روى الشيخان في صَحيحيهما : البخاري في كتابِ (التفسير) ومسلمٌ في كتابِ (الإيمان) بسندهما عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رضى الله عنهما قَالَ : لَمَّا نَزَلَتْ ﴿ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴾ (الشعراء:٢١٤) وَرَهْطَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ ، خَرَجَ رَسُولُ اللَّهِ صَلّى اللهُ عليْهِ وَعلَى آلِهِ وصَحبِه وسلّم حَتَّى صَعِدَ الصَّفَا فَهَتَفَ: «يَا صَبَاحَاهْ». فَقَالُوا مَنْ هَذَا ؟ ، فَاجْتَمَعُوا إِلَيْهِ . فَقَالَ : «أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَخْبَرْتُكُمْ أَنَّ خَيْلاً تَخْرُجُ مِنْ سَفْحِ هَذَا الْجَبَلِ أَكُنْتُمْ مُصَدِّقِي؟». قَالُوا : مَا جَرَّبْنَا عَلَيْكَ كَذِبًا . قَالَ : «فَإِنِّي نَذِيرٌ لَكُمْ بَيْنَ يَدَىْ عَذَابٍ شَدِيدٍ».

قَالَ أَبُو لَهَبٍ : تَبًّا لَكَ ، مَا جَمَعْتَنَا إِلاَّ لِهَذَا ، ثُمَّ قَامَ ، فَنَزَلَتْ : ﴿ تَبَّتْ يَدَآ أَبِى لَهَبٍ وَتَبَّ ﴾ (المسد:١)

وَقَدْ تَبَّ ، هَكَذَا قَرَأَهَا الأَعْمَشُ يَوْمَئِذٍ . (النّص للبخاريّ)

وروى الحميدي في مسنده عَنْ أَسْمَاءَ بِنْتِ أَبِى بَكْرٍ رضِيَ اللهُ عنهما ، قَالَتْ : لَمَّا نَزَلَتْ ﴿ تَبَّتْ يَدَآ أَبِى لَهَبٍ وَتَبَّ ﴾ (المسد:١) أَقْبَلَتِ الْعَوْرَاءُ : أُمُّ

جَمِيلٍ ابْنَةُ حَرْبٍ ، وَلَهَا وَلْوَلَةٌ وَفِي يَدِهَا فِهْرٌ[1] وَهِيَ تَقُولُ : مذممًا أَبَيْنَا ، وَدِينُهُ قَلَيْنَا ، وَأَمْرُهُ عَصَيْنَا . وَرَسُولُ اللَّهِ صَلّى اللهُ عليْهِ وَعلَى آلِهِ وصَحبِه وسلّم جَالِسٌ فِي الْمَسْجِدِ ، ثُمَّ قَرَأَ قُرْآنًا وَمَعَهُ أَبُو بَكْرٍ ، فَلَمَّا رَآهَا أَبُوبَكْرٍ قَالَ : « يَا رَسُولَ اللَّهِ قَدْ أَقْبَلَتْ وَأَنَا أَخَافُ أَنْ تَرَاكَ »..[2]

فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلّى اللهُ عليْهِ وَعلَى آلِهِ وصَحبِه وسلّم : « إِنَّهَا لَن تَرَانِي ».

وَقَرَأَ قُرْآنًا اعْتَصَمَ بِهِ ، كَمَا قَال وَقَرَأَ : ﴿ **وَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ حِجَابًا مَّسْتُورًا** ﴾ (الإسراء:٤٥) فَأَقْبَلَتْ حَتَّى وَقَفَتْ عَلَى أَبِي بَكْرٍ ، وَلَمْ تَرَ رَسُولَ اللَّهِ ـ صلّى اللهُ عليْهِ وعلَى آلِهِ وصَحبِهِ وسَلّم ـ فَقَالَتْ : يَا أَبَا بَكْرٍ إِنِّي أُخْبِرْتُ أَنَّ صَاحِبَكَ هَجَانِي .

فَقَالَ : لاَ ، وَرَبِّ هَذَا الْبَيْتِ مَا هَجَاكِ ».[3]

---

(١) الفِهْرُ الحجر قَدْرَ ما يُدَقُّ به الجَوْزُ ونحوه ، وقيل هو حجر يملأ الكف ، والجمع أَفْهار وفُهُورٌ .

(٢) قد يفهمُ غافلٌ عجلٌ من قول أبي بكر الصّديق رضيَ الله عنه لرسُول اللهِ صَلّى اللهُ عليْهِ وَعلَى آلِهِ وصَحبِه وسلَّم : قَدْ أَقْبَلَتْ وَأَنَا أَخَافُ أَنْ تَرَاكَ . « أنّ في هذا ما يُفهم منْه ما يقدح فِي رجولَةِ أيٍّ منهما . هذا لا يردُ إلا على قلبٍ غافلٍ عجلٍ لا يعقِلُ سُنن الرُّجولَةِ عندِ العربِ يومَ كانَ العربُ عربًا .

مِن سُنن الرجولَة ألا يقابلَ الرَّجلُ إساءةَ المرأة له ، فالرَّجل لا يمدنّ يدَه ، ولا لسانَه إلى امرأة ،وإن قالتْ ما قالت ، وإنما الأمر يكونُ مع من يتولّى أمرها ، فأبو بكر رَضيَ الله عنه خاف أن تتطاول على رسُول الله صَلّى اللهُ عليْهِ وَعلَى آلِهِ وصَحبِه وسلّم متترسةً بسنن الرجولة التي تمنع من الردّ عليها قولاً أو فعلا .

(٣) لقول الصّديق رَضي الله عنه : « لا ، وربّ هذا البيْتِ ما هجاكِ » وجهان :

الأوّل : أنّ النبيّ صَلّى اللهُ عليْهِ وَعلَى آلِهِ وصَحبِه وسلّم لَم يهجُها من عندِ نفسِهِ حتَّى يُنسبَ الفعلُ إليْه على الحقِيقةِ ، بل الذي هجاها هو الله سُبحانَه وتَعَالَى ، ==

قَالَ : فَوَلَّتْ وَهِيَ تَقُولُ : قَدْ عَلِمَتْ قُرَيْشٌ أَنِّي بِنتُ سَيِّدِهَا ....» [1]

من هذا الذي مضَى يتبيّن لك أنَّ هذه السّورةَ قد نزلت جملة واحدة في العهدِ المكيّ ، من قبل وفاة أبي لهب التي كانت عقب «غَزوةِ بَدرٍ» .

وهذا دالٌّ على أنَّها إخبارٌ بغيب سيقعُ ، وهذا الإنباء وجهٌ قاطعٌ من وجوه الإعجازِ الّتي لا تتأتَّى المُنازَعةُ فيها أو التّوقف . وهو مِمّا يُفحِمُ كلَّ مَن يُعانِدُ فِي إعجازِ القِرآنِ .

والقرآنُ هنا لم يقل : ستتب يدا أبي لهب ، بل قطع بالأمرِ وكأنَّه قد حَدَث ، بل هو حدَثَ فعلا بمجردِ أن أخبرَ الله سُبْحانَه وتَعالَى بِه ، فهو خبرٌ حقٌّ ، جاء الواقعُ لِيصدِّق هذا الخَبرُ . فجمع بين أنّه حقٌّ ، وأنّه صدقٌ .

وكانَ بملك أبي لهبٍ أن يكذِّبَ القرآنّ ، فيؤمنَ ، فينادِي : ألا إنّ مُحمَّدًا يقُول إنّي خَسِرٌ هالكٌ ، ألا اشهدُوا أنّي آمنتُ بما أنزَلَ ، فيُفسِدُ عليْه دعوتَه ، ولكنّه صُرف إلى قدر الله عزّ وعلا صرفًا ، ممّا يدلُّ على سُلطانِ الله سُبحانَه وتَعَالَى وهيمنته ، وكان هذا جديرًا بأن يجعلَ كلَّ من كانَ حولَ أبي لهب مُقبلا على ما جاء به النبيّ صَلّى اللهُ عليْهِ وَعلَى آلِهِ وصَحبِه وسلّم .

* * *

== فما تلاه إنما هو ممَّا أنزلَه الله سُبحانَه وتَعالَى عليْه . وهذه صَفعةٌ صِديقِية بالغةٌ .

والآخر : أَنّ هذا ليس بهجاء وشتم ، بل هو إخبارٌ بما سيكون لها يوم الدّين ، وفي هذا من التّهدِيد لها ما فِيه . وهو ردٌّ بالغٌ علَى ما نعقت بِه من قبلُ .

وهذا الوجه الآخر هو الذي يصدر عنه من قالَ من أهلِ العلمِ في تأويل السُّورة إنّها إخبارٌ بغيبٍ مستقبل ، وليست بشتمٍ .

(١) صححه الألباني في صحيح السيرة النبوية ص١٣٧ ، ١٣٨ .

وجميعُ آياتها كان الحرفُ الأخيرُ فيها هو «الباء» خلا الآية الأخيرة فخاتمتها «الدال» وهذا دالٌ على أنّ اتفاقَ الآيات في خاتمة فواصِلها ، وهو ما يسمّيهِ البلاغيون «سجعًا» ليس غايةً في نفسِه ، بل الأمرُ مردُّه إلى المعنى ، وما يقتضِيه سياقُ البيان ، فكلُّ موضعٍ جاء فيه اتفاقُ الفواصلِ في الحرفِ الأخيرِ هُو من اقتضاء المعنى ، وليس لتحقيق تناغمٍ صوتيٍّ أجرد من الفائدة المعنويّة ، يقف على تلك الفائدة بعضٌ ، ولا يبصرُها بعضٌ ، فلا يجعل طالبُ العلم عجزَه عن أن يبصرَ الفائدةَ باعثًا له على نفيها . فكَمْ في الحياة مِن أشياءَ هي قائمةٌ لا نُبصِرُها ، ولا يُمكنُنا إنكارُ وجودِها البتّة ..

* * *

مقصُودها

أهل العلم بكتابِ اللهِ تعالى على أنّ لكلِّ سُورةٍ من القرآن مقصُودًا أعظم هو محورُ معانيها وعقيدها ، وكل معنًى كليّ من معاني معاقدها (فصُولها) مشدودٌ إلى هذا المعنى المحوريّ (المقصُود الأعظم) على نحو يكون غيرَ خفِيّ علَى متبصّر ، وكلّ معنًى جزئيّ أيضًا هو مشدودٌ إلى ذلك المعنَى المحوري المركزيّ وإن كان أشدّ خفاء على غيرِ قليلٍ من النّاظرين من طلابِ العلم ، حتّى إن ورد هذا المعنَى الجزئيّ على نحو الاعتراضِ أو الاستطرادِ .

وأهلُ تفسيرِ البيان القرآني وتدبرِه متفاوتون في العناية بإبرازِ هذا المقصُود الأعظم في بيانِهم ، وإن كنت أذهبُ إلى أنّ الأئمة منهم مدركون ذلك المقصُود الأعظم ، وإن لم يصرحوا بتعيينِه في تفاسيرِهم ، لأنّهم مَهْمُومُون ببيان أصل المعاني التَّكليفيّة عقيدةً وشريعةً .

وهي معانٍ لا يتوقفُ إدراكُ أصلِها على تعيين المقصُود الأعظم ، لأنَّ العِرفانَ به مُعِينٌ على البَصَرِ بشَيْءٍ مِن المَعاني الإحسانيّة الزائدة على المعاني التكليفيّة عقيدةً ، وشَريعَةً .(١)

وممّا يَحسُنُ أن يكونَ طالبُ العلمِ بكتابِ اللهِ سُبحانَه وتعَالَى على ذكر منه أنَّ هنالك فرقًا بيْن «المقصُودِ الأعظم» : (المعنى أو الغرضِ المحوريّ) وأغراضِ السورة ؛ لأنّ أغراضَ السّورة إنّما هي أغراضُ الموضوعاتِ الّتي تتكوّنُ منها السّورةُ ، ولا سِيّما الطُّوال والمئين ، وهي أغراضٌ مَرحليّة ، بينما (المقصُودُ الأعظمُ) غرضٌ كليٌّ مِحوريٌّ ليس خاصًّا بموضُوعٍ مِن موضوعاتِ السّورةِ ، وإن تفاوتَ ظهورُه في بعض معاقدِ السّورةِ أو بعضِ آياتها ، فهو تفاوتُ ظهورٍ لا تفاوتُ حضُورٍ .

---

(١) عُظم المعاني الإحسانية في البياني القرآني هي معانٍ تثقيفية تحفز النفس على الإقبال على ما جاءت به المعاني التكليفية عقيدة وشريعة وأخلاقًا ، والأخذ بها أخذ بالعِطيَّةِ الربانيّة ، فتقوم النفسُ بما كلفت به عقيدةً أو شريعة أو أخلاقًا قيامَ محبة وتشرّفٍ لا أخذ تكليف وقسرٍ ، فتكون علاقةُ العبدِ بربّه ـ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ـ علاقة محبة مزاجها الإجلالُ والخشيةُ المؤسَّسة على عظيم عرفان بجلال الله تعالى وكمالِه .

ومثل هذا يدفق في القلب من لذيذ الأنس بالله تعالى ما لو ذاقه ملوك الأرضِ لاشتروا مقدار شرو نقير منه بكلّ ما في أيديهم من الدنيا . ولكن أكثر الناسِ لا يعقلون ، فإن للعلم بالله تعالى وبكتابه وسنةِ رسُولِه صَلّى اللهُ علَيْهِ وعَلى آلِه وَصَحبِه وسلّم لذة لو علمها الملوك لقاتلوا أهلها عليها ، ولكنه من رحمة الله تعالى بورثة الأنبياء أن جعل أكثر ملوك الأرض أزهد النَّاس في العلم بالله تعالى بل أزهد النّاس في سماع اسمه ـ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى .

هذه أصُولٌ حرى بِطالبِ العلم بِكتابِ اللهِ تعالى أن يكون علَى ذكرٍ منها ، وأن تكونَ حاضرةً في قلبِه ولا تغيبُ ولا تَغيم في تـدبرِه واسـتنباطِه معـانِي الهدَى في أيّ سُورةٍ من سورِ الكتابِ الكريم .

* * *

مقصود سورة المسد : تقريرُ أمرين رئيسين تحتاجهما الـدَّعوةُ في بـاكِرِ أمرِها ، وفي مَسيرِها كلِّهِ مِن بعدُ ، هذان الأمران :

الأولُ : تقريرُ جلالِ الألوهيّةِ في قلوبِ العبادِ .

والآخر : تقريرِ ثِقةِ أتباعِ النبيّ صَلّى اللهُ عليْهِ وَعلَى آلِـهِ وصَـحبِه وسـلّم في انتِصار دعوةِ الحقِّ وإزهاقِ الباطلِ وأهلِه ثقة تفتح القلوبَ للإسلام قبلِ أن تفتح البلدان .

وهذا التقرير أفهمه البيانُ القرآنيّ من خلالِ أسلوبِ الإنبـاء بـإهلاك أهـل الكفر وأعوانِهم في الدُّنيا والآخرة إهلاكًا لا تبقَى معه لهم شَوكةٌ .

هذا الإنباءُ مُمَثلٌ في تَبابِ رأسِ الكفر أبي لهب وامرأته وفِي هلاكِه . فَلن تنفعَه قُربَى نسبٍ ، وإن علا ، فالنبيّ صَلّى اللهُ عليْهِ وَعلَى آلِهِ وصَحبِه وسـلّم وهو مَن هو لا يملِكُ أن يدفعَ عَن الكـافرِ مِـن ذوي نسـبِهِ ؛ لأنّـه صَـلّى اللهُ عليْهِ وَعلَى آلِهِ وصَحبِه وسلّم عبدٌ لا يَملكُ من الأمرِ شيئًا . بل الأمرُ كلُّه لله سُبْحانَه وتَعالَى .

وهذا الإنباءُ الحقّ بإهلاكِ رأسِ الكفرِ يلزمُه الإنبـاءُ بنصـرِ الحـقّ وأهلِـه ، ممّا يقرّر الطمأنينة في قلوبِ القائمين له ، والقائمين به ، فإذا كلُّ بليّة عندهم هي تؤول يقينا إلى عطيّة ما كانوا للحقّ قائمين ، وبه وجودهم .

* * *

تلاحظ المعاني وتناصرها بين سورة «المسد» وسور أخر:

إذا ما كانتْ سُورة «المسد» قَد جاءت إنباءً بتبابِ أهل الباطل مُمثلا في رأس الكفر أبي لهبٍ وامرأتِه وكان هذا يحملُ في رحمِه إنباءً بِنصرِ الحقِّ ، وعلوّ أهلِه فإنَّ سورة «المَسَدِ» تؤكِّدُ بمفهومِها ما جاءَ مصرّحًا بِهِ فِي السّورَةِ قبلَها «سورة النّصر» :

سُورة «المسد» جاءت بُشرَى لرسول الله صَلّى اللهُ عليْهِ وَعلَى آلِهِ وصَحبِه وسلّم ولأتباعه وهم يومئذٍ قليلٌ مستضعفون بأنّ النَّصرَ لهم ، وأنّهم على الحقِّ الّذي سَيبسُطُ سلطانَه وأنَّ من كان مِن حزبِ أبي لهبٍ وامرأته ليس لهم إلا الخسرانُ ، وإنْ عَظُمَ فيهم المالُ ومتاعُ الدُّنيا بأسرِها ، فلن يُغني عنهم شيئًا ، فلا ينشغلنَّ أهلُ الإسلام بجمعِ متاعِ الدُّنيا إلاّ بما يكون عونًا على نصرِ الحقّ وبسطِ سلطانِه وتحقيق استغنائهم عن كلّ من ليس مِن الإسلام في شيْءٍ .

وسورة (المَسد) تنظرُ بعين الرِّعاية والتناصرِ معانِي الهُدى في سورة النصر وفي سورة (الكافرون) وفي سورةِ (الكوثر) ، وفي سورةِ (الماعون) وفي سورة الفيل وسورة قريش :

إذا ما نظرت في كل من سورتي (الفيل) و(قريش) رأيت في الأولى (الفيل) تصويرًا لما حلَّ بمن عاند الحقّ ونعى على أهله واستكبر وصدَّ عن سبيل الله ، ورأيت في الثانية (قريش) تصويرًا لما تفضل به الله تعالى على أهل الحرم وسدنته وحماته من رعاية وعناية وحفظ ، فهلاك أصحاب الفيل هو الممثل لهلاك أهل الباطل الصادين عن الحق من غير قوم رسول الله صلى الله عليه وسلم وهلاك أبي لهب وامرأته هو الممثل لهلاك أهل الباطل الصادين عن سبيل الله تعالى من قوم رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وأنت إذا نظرتَ في سورة (الماعون) رأيت أبا لهبٍ وامرأتَه هما النَّموذج الجليُّ الكاملُ للذي يكذِّب بيوم الدِّين والّذي يدعُّ اليتيمَ ، والّذي لا يحُضُّ على طعامِ المسكين ، فقد كان عظيمَ الشُّحِّ .

وأنت إذا نظرت إلى سورة (المسد) رأيت أنّها دالَّة بمنطوقها على هلاك الكافر ، ودالَّة بلازمِها على نصرةِ النبيّ صَلّى اللهُ عليْهِ وَعلَى آلِهِ وصَحبِه وسلّم وأتباعِه فدلّ لازمها على قولِه تعالى : ﴿ إِنَّآ أَعۡطَيۡنَٰكَ ٱلۡكَوۡثَرَ ﴾ (الكوثر:١) ، ودلّ منطُوقها على قوله تعالى ﴿ إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلۡأَبۡتَرُ﴾ (الكوثر:٣)

وقد كان أبو لهبٍ أبترًا ، هلك ، وخسر خُسرانًا مبينًا ، ولم يُغنِ عَنه كمالُه وولدُه شيئًا .

هكذا تتلاحظُ معاني سورة (المسد) وسورة (الكوثر) مثلما تلاحظت معاني سورة (الماعون) .

وأنت إذا نظرت في سورة (الكافرون) ، رأيت منطوقها دالاً على أنّ رؤوس الكفر لن يؤمنوا ، وهذا ما دلت عليه سورة (المسد) فرأسُ الكافرين أبو لهب وامرأته لن يؤمنوا ؛ لأنَّه سيصلى نارًا ذات لهب وامرأته حمّالة الحطب في جيدِها حبلٌ مِن مسدٍ .

وَإِذَا مَا كانت سورة (النصر) دالّةٌ بمنطوقها على نصر الإسلام وهيمنتِه على العبادِ ، ودالَّةٌ بلازمِها على كسرِ شوكةِ الكُفرِ وأنَّه لن تكون له البتة دولة ، فإنَّ هذا اللّازم هو ما دلَّ عليه منطوق سورة (المسد) .

ومن وجوه التَّلاحظِ والتَّرابطِ أنَّ سورة (النّصر) وسورة (المسد) بمثابة الاستئناف البيانيّ من آخر سُورة (الكافرون) ، فهما جواب عن سؤال استحضره قوله تعالى : ﴿ لَكُمۡ دِينُكُمۡ وَلِيَ دِينِ ﴾ (الكافرون:٦) فكأنّ النبيّ صَلّى

اللهُ عليْهِ وَعلَى آلِهِ وصَحبِه وسلّم سـأل فما جزائي ؟ فقيل له : جـزاؤك النّصرُ ، والفتحُ ، فقال : وما جزاء أعدائي قيل له : الهلاكُ والخُسرانُ .

وقدم مُثوبتَه بالنّصـر والفـتح علـى عقُوبـة عـدوّه بالتـبّ والخسـران نشـرًا للبشرى ، وليقع النّبأ عَن مَثُوبَتِهِ صَلّى اللهُ عليْـهِ وَعلَـى آلِـهِ وصَـحبِه وسـلّم مؤكّدًا حيثُ ذُكِـرَ مُصـرّحًا بِـه فِـي سُـورةِ (النّصـر) ومُلَوّحًـا بِـه فِـي سُـورةِ (المسد)[1].

وأمرٌ آخر سُورةُ (النّصرِ) تَلتفِتُ إلَى قَولِ الله عَزّ وجلّ : ﴿ وَلِيَ دِينِ ﴾ (الكافرون:٦) وسُورة (المسد) تَلتَفِتُ إلَى قَولِه تعالى : ﴿ لَكُمْ دِينُكُمْ ﴾ (الكافرون:٦) هذا أشبه بردِّ العجزِ على الصدرِ من وجهٍ وبالإجمالِ والتفصيلِ من وجهٍ آخر .

ولكلٍ من الأسلوبين وظيفتُه فِي إيصَال المعنى إلى القلبِ بأحسـن صُـورة مِن اللفظِ وتمكينه فِيه وتوطينه ليَفعل فيه ما يجعلُه قلبًا قادرًا علـى أن يفعـلَ ما يرَاد له أن يفعل في هذه الحياةِ ممّا يُرضِي الله سبحانَه وتَعالَى .

تبيّن لك أنّه إذا ما كانت سُورةُ (النّصر) من أواخرِ ما نزلَ من كتابِ ربنا تعالى علَى نبيّنا صَلّى اللهُ عليْهِ وَعلَى آلِهِ وصَحبِه وسلّم ، وأنبأ النبيّ صَلّى اللهُ عليْهِ وَعلَى آلِهِ وصَحبِه وسلّم أن فِي نزولها نعيّ له ، وكذلك فهم منها سيدنا ابن عباسٍ رضِيَ الله عَنهما[2]

---

(١) مفـاتيح الغيـب للـرازيّ ، ط .٣ ،١٤٢٠هــ ، دارإحيـاء الـتراث العربـي . بـيروت ، ٢١١/٣٢

(٢) روى أحمد في مسنده بسنده من حديثِ ابن عباس حدثنا محمد بـن فُضَـيل حـدثنا عطاء عن سعيد بن جُبَير عن ابن عباس رَضي الله عنهما قال : لما نزلـتْ ﴿ إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ ﴾ (النصر:١) قال رسول الله صَلّى اللهُ عليْهِ وَعلَى آلِهِ وصَحبِه وسلّم : « نُعيتْ إليّ نفسي » ، بأنه مقبوض في تلك السنَة ». ==

== قال أحمد شاكر في تعليقه على مسند أحمد عن هذا الحديث : إسناده صحيح ، مسند أحمد . تحقيق : أحمد محمد شاكر ، ط . ١ ، ١٤١٦هـ ، دار الحديث ، القاهرة ٤٣٥/٢ ، حديث رقم : ١٨٧٣

روى البخاريّ في كتاب (المغازي) من صَحيحِهِ بِسَنَدِهَ عنِ ابْنِ عَبَّاسٍ ـ رضى الله عنهما ـ قَالَ كَانَ عُمَرُ يُدْخِلُنِى مَعَ أَشْيَاخِ بَدْرٍ ، فَقَالَ بَعْضُهُمْ لِمَ تُدْخِلُ هَذَا الْفَتَى مَعَنَا ، وَلَنَا أَبْنَاءٌ مِثْلُهُ فَقَالَ إِنَّهُ مِمَّنْ قَدْ عَلِمْتُمْ .

قَالَ فَدَعَاهُمْ ذَاتَ يَوْمٍ ، وَدَعَانِي مَعَهُمْ قَالَ وَمَا رُئِيتُهُ دَعَانِي يَوْمَئِذٍ إِلاَّ لِيُرِيَهُمْ مِنِّى فَقَالَ مَا تَقُولُونَ ﴿ إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ ۝١ وَرَأَيْتَ ٱلنَّاسَ يَدْخُلُونَ ﴾ (النصر:٢،١) حَتَّى خَتَمَ السُّورَةَ ، فَقَالَ بَعْضُهُمْ أُمِرْنَا أَنْ نَحْمَدَ اللَّهَ وَنَسْتَغْفِرَهُ، إِذَا نُصِرْنَا وَفُتِحَ عَلَيْنَا . وَقَالَ بَعْضُهُمْ لاَ نَدْرِى . أَوْ لَمْ يَقُلْ بَعْضُهُمْ شَيْئًا . فَقَالَ لِي : يَا ابْنَ عَبَّاسٍ ، أَكَذَاكَ تَقُولُ؟ قُلْتُ لاَ . قَالَ : فَمَا تَقُولُ ؟

قُلْتُ : هُوَ أَجَلُ رَسُولِ اللَّهِ ـ صلّى اللهُ عليْهِ وعلَى آلِهِ وصَحبِهِ وسلّم ـ أَعْلَمَهُ اللَّهُ لَهُ ﴿ إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ ﴾ (النصر:١) فَتْحُ مَكَّةَ ، فَذَاكَ عَلاَمَةُ أَجَلِكَ ﴿ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَٱسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابًۢا ﴾ (النصر:٣) قَالَ عُمَرُ مَا أَعْلَمُ مِنْهَا إِلاَّ مَا تَعْلَمُ» .(اهـ)

وهذا الذي جاءنا عن رسُول الله صَلّى اللهُ عليْهِ وَعلَى آلِهِ وصَحبِهِ وسلّم في تلقِيه نعيّ نفسِه من سورةِ (النّصر) تأسيسٌ لمنهج تلقّي معنَى المعنَى ، وأنّه طريقٌ قويم من طُرقِ الدّلالة على الأمور المهمّة ، فإنّ الإنباءَ بأجلِ رسُولِ الله صَلّى اللهُ عليْهِ وَعلَى آلِهِ وصَحبِهِ وسلّم أمرٌ جلل ، وجاء الإنباء بِه بهذا الطريق ، فدلّ على عظيم مكانة هذا الطريق في الدّلالة على المعانِي .

وقد فقه علماءُ أُصُول الفقه هذا فجعلوه سبيلاً من سُبل استنباط معاني التشريع من بيان الوحيِ قُرآنًا وسنة . فوجب على طلابِ العلم الاعتناء بِه تصورًا معرفِيًّا والاعتناءُ بِه ممارسة في الفهم والإفهام ، ولهذا كان من حكمة عبدِ القاهرِ أن عُني بِه عنايةً بالغةً في كتابه «دلائل الإعجاز» وكان من لقانتِه وحكمتِه أن جعلَ حديثَه عن أسلوبِ الكناية في كتابِ «دلائلِ الإعجاز» لا في كتاب «أسرارِ البلاغةِ» وهذا يهدي طالبَ العلم إلى منهجية عبدِ القاهرِ في تصنيفِ الأساليبِ .

وكانت سُورةُ (المسد) من أوائل ما نـزل فِـي «مكـة» وعنـد وقُـوع أمـرٍ خاصٍّ كانَ من أبي لهبٍ ، فإن هذا لم يك قطُّ عاملا من عوامل تباعد ما بيْن السُّـورتين مضمـونًا ومقصُـودًا ، ممّا يُبين لك أن المضـامين والمقاصـد لا تتوقف علاقاتُ التواصل والترابط فيما بيْنها على أوقاتِ النُّـزول ومسـاقاته المقامة ، بل الأمرُ مردّه إلى ما وراء ذلك .

ومِمَّا يحسُن تبصُّرُه أنّه إذا ما كانت سورةُ (النّصر) بما تحمِلُه من بشرى الفتح وبسط سلطان الإسلام ، وكسرِ شوكةِ أهلِ الكفران ، ودخول الناسِ فِي دينِ اللهِ أفواجًا ، قد نزلت في خواتيم بعثتِه صَلّى اللهُ عليْهِ وَعلَى آلِهِ وصَحبِه وسلّم فإنّ ما تضمنته من البشرى لم يكن ليبقَى إلى آخر البعثة ، بل أنبأ الله سُبْحانه وتعالَى بِه نبيه ورسُوله صَلّى اللهُ عليْهِ وَعلَـى آلِـهِ وصَـحبِه وسـلّم تلويحـا في مفتتح البعثةِ في سورة (المسد)، فبدأ بالبشرى تلويحًا ، وختم بها تصريحا .

وهذا من فيضِ ربوبيتـه تعـالى ، وكـريم رحيميتـه بصـفيه وخليلِـه سيّدنا مُحمّدٍ صَلّى اللهُ عليْهِ وَعلَى آلِهِ وصَحبِه وسلّم .

* * *

علاقة سورة (المسد) بسُورة (الهمزة) :

سورة (الهمزة) سورة مكيّة تعنـى ببيـان أثـرِ الاعتـدادِ بالمـالِ والجـاهِ في التَّصدّي لدعوةِ الحقِّ ، وبِبيانِ أثرِ هذا الاعتدادِ في الاطمئنان بهذا المالِ ، وفِي الحُسبان أنَّ ذلك هو السبيلُ إلى تحقيقِ دَيمومة العِزّة والسُّلطان ، وكيـف أنَّ ذلك يحملُه على إيذاءِ النَّاسِ بلسانِه ويدِه همـزًا ولمـزًا ، وبِبيـانِ مـا سـيكونُ عليه مصيرُه في الآخرةِ .

وهذا كما ترَى قريبٌ جدًّا من حال أبي لهب ، بل إنّ حالَ أبـي لهـب هـو النموذجُ الذي تنطبقُ عليه سُورةُ (الهمزة) فسـورة (الهمـزةِ) وسـورة (المسـد) تتلاحظان .

* * *

علاقَةُ سُورةِ (المسدِ) بِسُورةِ النِّسَاء :

سُورةُ (النِّسَاء) سورةٌ مدنيّةٌ هي الرّابعةُ في أوّلِ النسقِ الترتيليّ ، بينما سُورة (المسد) المكيّة الرَّابعةُ من آخر النَّسقِ الترتيليّ .

سُورة « النساء » جاءت لتُبينَ عن منهاج بناءِ الأُسرةِ المُسلِمةِ على دُعامتينِ عظيمتين : العدلِ والرّحمة وتُبين أحكامِ ذلك البناءِ وضوابطه ومظاهره .

وأنت إذا ما تابعت التّبصّر في معاقد (فصُول) سورة (النساء) وآياتِها ألفيت قيمة العدل وقيمة الرّحمة حاضرةَ حضورًا ظاهرًا حينًا وخفيًّا حينًا .

سورة (النساء) جاءت للبناءِ وبيان أثر المرأة في هذه البناءِ . وسورة (المسد) جاءت مُبينةً أثر المرأة في هدم الأسرة وخسرانها ، فليس ثَمَّ امرأةٌ هي الشّؤمُ على زوجِها وبيتِها كمثلِ ما كانتْ امرأةُ أبي لهبٍ ، فبيْن سُورةِ (النساء) وسورةِ (المَسَد) مقابلةٌ كليّة .

إنَّ تلاحظُ المعاني على مستوى الجملةِ والآيةِ والنَّجم والمعقدِ والسّورةِ من خصائص البيانِ القرآنيِّ ، فأنت لا تكاد تجده في بيان آخرَ على النحو العليّ الذي يتراءَى لكلّ ثاقب النّظرِ محيطِه .

* * *

موقع سُورةُ المسد على لاحبِ سِياقِ المعنَى الكليّ للقُرآن عند بعضِ أهلِ العلم :

يذهبُ بعضُ أهلِ العلم إلى أنّ سُورة (المسد) تمثّل خاتمة تمامِ المعنى القُرآنيّ[1] فتمامُ الدَّعوة أن يتم النّصر والفتحُ ، ورمزُه فتحُ مكّةَ مركزِ الأرضِ

(١) ينظر في هذا : البرهان في تناسب سور القرآن ، لأبي جعفر بن الزبير (ت: ٧٠٨هـ) تحقيق : محمد شعباني ، ط : وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية ـ المغرب ، سنة : ١٤١٠ هـ . ص٣٨٤ ، وتفسير نظامُ القرآن لعبدِ الحميد الفراهيّ ، المطبعة الحميدية بالهند . ص ٥٧٥

أمِّ القُرَى ، ففتحها رأسُ فتح كلِّ القُرى ، فإنّ هذا الـدّين داخـلٌ كـلَّ موضـعٍ دخله ليلٌ أو نهار . كما جاء بِه النبأُ الحقُّ عن رسول الله صَلّى اللهُ عليْهِ وَعلَى آلِهِ وصَحبِه وسلّم .

روى أحمد في مسنده بسندِه من حديثِ تَمِيمٍ الدَّارِيِّ رَضِي الله عنـه قَـالَ : سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلّى اللهُ عليْهِ وَعلَى آلِهِ وصَحبِه وسـلّم يَقُـولُ : « لَيَبْلُغَنَّ هَذَا الأَمْرُ مَا بَلَغَ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَلاَ يَتْرُكُ اللَّهُ بَيْتَ مَدَرٍ وَلاَ وَبَرٍ إِلاَّ أَدْخَلَهُ اللَّـهُ هَذَا الدِّينَ بِعِزِّ عَزِيزٍ أَوْ بِذُلِّ ذَلِيلٍ عِزًّا يُعِزُّ اللَّهُ بِهِ الإِسْـلاَمَ وَذُلًّا يُـذِلُّ اللَّـهُ بِـهِ الْكُفْرَ » .

وروى مسلم في صحيحِه من كتابِ (الإمارةِ) بسنده عَنْ جَـابِرِ بْـنِ سَـمُرَةَ رضيَ اللهُ عنه عَنِ النَّبِيِّ صَلّى اللهُ عليْهِ وَعلَى آلِـهِ وصَـحبِه وسـلّم أَنَّـهُ قَـالَ : « لَنْ يَبْرَحَ هَذَا الدِّينُ قَائِمًا يُقَاتِـلُ عَلَيْـهِ عِصَـابَةٌ مِـنَ الْمُسْـلِمِينَ حَتَّـى تَقُـومَ السَّاعَةُ » .

فتمامُ الدِّين النَّصرُ والفتحُ الذي دلّت عليْه سُورةُ النّصر ، ومن قبلها صدرُ سُورة الكوثرِ ﴿ إِنَّآ أَعۡطَيۡنَٰكَ ٱلۡكَوۡثَرَ ﴾ (الكوثر:١) ومن الكوثر (الكثير) النَّصرُ والفتحُ ، وتمامُ هذا الدين .

ومن تمامِ هذا الدين هلاكُ من يعانُده ويعاديه ، وقد دلَّت على ذلك سُورةُ (المسد) بإعلان تبابُ أبي لهب وهلاكه وخسرانه وامرأتِه ودلّت عليه من قبلِها خاتمةُ سُورةِ (الكوثَر) ﴿ إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلۡأَبۡتَرُ ﴾ (الكوثر:٣)

وهذا يلفتُنا إلى مآلِ صراطِ الذين أنعم الله تعـالى علـيهم ، ومَصِـير أهلِـهِ ممثلا فِي سُورةِ النّصر والفتح ، وإلى مآلِ صراطِ المَغضوبِ عليهم وإلَى مآلِ صِراطِ الضّالين ومصير أَهلِه مُمثَّلاً فِي سورةِ (المَسدِ) .

يقُول المهايميّ : إنَّ ما جاءت به سورة «تبت» من الدلالة على تحقِيقِ الخسرانِ الكليّ المُفضِي إلى الهلاكِ الأعظمِ لأعظمِ الشّرفاء بإنكارِ هذا الدينِ هو من أعظم مقاصِدِ القرآن . وكان قد قال في سورة (النصر) سميت سورة النصر لأنه ظهر بِه دينُ الإسلام علَى سائر الأديان ، وهو من أعظمِ مقاصِد القرآن[1]

وهو بهذا يلفت إلى أن القرآن قد ختم بسورتين دلت كلّ واحدة منهما على أمرٍ هو من أعظم مقاصدِ القرآن ، وكل واحدٌ مكمّلٌ للآخر .

النظم التركيبيّ (النصّيّ) لسورةِ «المَسَد» :

استعمل العلماءُ المتقدمون قبل عبد القاهر الجرجاني (ت:٤٧١هـ) كلمة (نظم) ، يريدون بها طريقة تركيب السُّورة من آيات كما نراه عند الباقلانيّ الذي ذهب إلى أنّ نظمَهُ هو ترتيبُ جمله وآياته على نحو ليس له نظير فيما عهدت العربُ من فنون البيان .

النظم عندَه إنما يتناول منهج بناء السُّورة : ترتيب عناصرها من جمل وآيات وفصول عَلَى نحو لم تعهده العربُ من قبلُ . وهو ما يُمكن أن أسميه «البناء التركيبيّ» للسورة ، ومن أهل النظر من يُسميه البناء النصّي أو عمارة السورة .

ولم يريدوا بها طريقة تركيب الآية من جمل ، والجمل من كلمات والتي عمادها عند عبدِ القاهرِ توخّي معاني النحو فيما بيْن معانِي الكلمِ على وفقِ الأغراضِ والمعاني .

وكذلك نجد من جاء في زمنِ عبدِ القاهر أو بعده بِقَليلِ مَنْ فَسّرَ النّظمَ على غيرَ ما جاءَ بِه عبدُ القاهر ، نجِدُ الرَّاغبَ الأصفهاني (ت:٥٠٢هـ) يَقُول:

---

(١) تبصير الرحمن لعليٍّ المهايمي ٤١٦/٢ ، ٤١٧

« إنّ الإعجاز قد ذكر في القرآن» على وجهين : أحدهما : إعجاز متعلق بفصاحته ، والثاني : بصرف الناس عن معارضته .

فأما الإعجاز المتعلق بالفصاحة : فليس يتعلق ذلك بعنصره الذي هو اللفظ والمعنى ، وذلك أنَّ ألفاظه ألفاظهم .... ولا يتعلق أيضاً بمعانيه .... وما هو معجز فيه من جهة المعنى ، كالإخبار بالغيب فإعجازه [أي الإخبار بالغيب] ليس برجع إلى القرآن بما هو قرآن ، بل هو لكونه خبراً بالغيب ، وذلك سواء كونه بالنظم أو بغيره . وسواء كان مورداً بالفارسية أو بالعربية أو بلغة أخرى أو بإشارة أو بعبارة . فإذا بالنظم المخصوص صار القرآنُ قرآنًا .

كما أنَّه بالنّظم المخصوص صار الشّعرُ شعراً ، أو الخطبةُ خطبةً .

فالنّظم صورةُ القرآنِ ، واللفظ والمعنى عنصره ، وباختلاف الصُّور يختلف حكمُ الشيْءِ واسمه ، لا بعنصره ، كالخاتم والقرط والخلخال تختلف أحكامها وأسماؤها باختلاف صُورها لا بعنصرِها الذي هو الذَّهب والفضّة ، فإذا ثبتَ هذا ثبتَ أنَّ الإعجازَ المُختصَّ بالقرآن متعلقٌ بالنّظم المَخصوصِ..... تأليفُه ليس على هيئة نظم يتعاطاه البشرُ ، فيمكنُ أن يُزادَ فيه كحالِ الكتبِ الأُخر ...» [1]

والنّظرُ إلى السّورة بيانًا له نظمٌ في ترتيبِ مكوناتِه بدءًا ومنتهى أمرٌ قديمٌ التفت إليْه أهلُ العلمِ واعتنوا ببعضِ حقّهِ .

ومن الحَسنِ أن ننظرَ في منهج بناءِ المعنى في سورةِ «المسد» وحركة هذا المعنى الذي يحمل في مضمونِه وجهًا فتيًّا من وجوه إعجاز القرآن ،

---

(١) تفسير الراغب الأصفهاني (ت: ٥٠٢هـ) : تحقيق . محمد عبد العزيز بسيوني ، كلية الآداب ـ جامعة طنطا ، الطبعة الأولى : ١٤٢٠ هـ - ١٩٩٩ م ، ٤٤/١، ٤٥

ويحمل في الصُورةِ المعبرة عنه أيضًا وجهًا آخر من وجوه إعجاز القرآن ، فهي سورةٌ من حيثُ مضمونِها معجِزةٌ ، ومن حيثُ نظمُها معجزةٌ ، ومن حيثُ أسلوبُها معجِزةٌ فاجتمعت فيها ثلاثةُ وجوهٍ من أعظمِ وجوه إعجاز القرآن التي تتكاثر مع مرّ الزَّمان ، وتنوعِ الثقافاتِ والمعارِف .

* * *

سُورةُ (المسدِ) على قلّة عددِ آياتِها وكلمِها هي معقدان : المعقدُ الثاني فيه بيان وتفصيلٌ للأول :

المعقد الأوَّل هو الآيةُ الأولَى وحدها : ﴿ **تَبَّتْ يَدَآ أَبِى لَهَبٍ وَتَبَّ** ﴾ (المسد:١) .

والمعقد الآخر هو بقية السُّورة : ﴿ **مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُۥ وَمَا كَسَبَ ۝٢ سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ۝٣ وَٱمْرَأَتُهُۥ حَمَّالَةَ ٱلْحَطَبِ ۝٤ فِى جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ** ﴾ (المسد:٢-٥) .

لو أنّ البيان القرآنيّ جاءَ بالآية الأولى وحدَها لتَّم أصلُ المعنى . وحينئذٍ سيتولَّى المتلقِّي تصوُّرَ ما سيكونُ له من هذا التبّ : ﴿ **إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلْأَبْتَرُ** ﴾ (الكوثر:٣) ولكنَّ البيان القُرآنيَّ جاء بالمعقدِ الثاني (بقية السُّورةِ) فأبان لنا ما سنعجزُ عن تصوّره ، فهو يتضمَّنُ إنباءً بما سيكونُ له في الدُّنيا مُمَثَّلا في قولِه تعالى : ﴿ **مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُۥ وَمَا كَسَبَ** ﴾ (المسد:٢) وفيما سيكونُ له ولامرأتِه يَومَ القيامةِ ﴿ **سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ** ﴾ (المسد:٣) الآيات ، فذلك مِن أنباءِ يوم القيامة الَّتي لا علم لنا بعقُولنا بشيءٍ منها البتّةَ ، كلّ ما نعرِفُه عنها إنّما من إنباء الوحي ولذا كان إنباءُ الوحي لنا بأحوالِها من فيضِ الرُّبوبية من عطاءاتِ الرّحمانيّة والرَّحيميّة ، والتي تستوجبُ علينا حمد الله سُبحانَهُ وتَعَالَى عليها ، فوقَ استحقاقِه علينا حمدَه والثَّناءَ عليه لِذاتِه العَليّةِ .

ومِن هذا الفيضِ أن يجمعَ إلى إنبائنا بهذا الغيبِ نعمة الالتفاتِ إليه وتدبرِه وتذكره ، والانتفاعِ بذلك في ضبط حركة حياتنا في مسيرنا إلى مصيرنا ، فتلك نعمةٌ عظمَى إلى آلاءٍ أعظم . والحمدُ لله ربِّ العالمين .

ولمَّا كان المحصُولُ المعرفيّ بما يكونُ لأبي لهبٍ الّذي يُنتجه التَّصوّرُ العقليّ مَهما بلغ هذا التصّورُ العقليُّ في فتوتِه وفحولتِه وصوابه وإحاطتِه غيرَ ملائم لحالِ أبي لهبٍ من جهةٍ ، وغيرَ ملائمٍ مِن جهةٍ أُخرَى لما يُرادُ أن يُقام في قلبِ المتلقّي حتى يتحاجزَ بكلّ ما يملك في كل حالٍ من أحوالِه عن منهج أبي لهبٍ وامرأتِه ـ لما كان كذلك تولَّى البيانُ القُرآني الإنباءَ بذلك الغيب الذي لا سبيلَ لنا إلى معرفتِه إلا بإنباءِ الغيب ، وهذا من عظيم رحمة الله تعالى بنا ، وهو مِن فيضِ جمالِ الرُّبوبيّة علينا .

من هنا يتبيّنُ لك أن الآياتِ الأربعَ الأخيرةَ في السُّورةِ هي بيانٌ للآيةِ الأُولى فيها . فالسُّورةُ قائمةٌ مِن أمرين : مجملٍ ومفصّلٍ له ، أو مِن أمرٍ واحدٍ إنْ شِئتَ : من نبإٍ مجملٍ ونبإٍ هو تفصيلِه .

* * *

وأسلوبُ الإجمالِ ثُمَّ التفصيلُ هو الأسلوبُ العُمدةُ في بيانِ الوحي قُرآنًا وسنَّة .

القرآنُ كلّه مجملٌ في سُورة الفاتحةِ ، وقد سُمّيت «أمَّ الكتابِ» ثُم فُصّل ما أجملَ فيها من معانِي الهدَى في ما تلاها من السُّور ، فما مِن معنًى مِن معانِي الهُدَى فِي أيّ سُورة من السُّورِ التي تلتها إلاَّ وأنتَ بِبصيرتِك النَّافذةِ يُمكنُك أن تلمحَ ما يتعلقُ بِه من معانِي «سورة الفاتحة» وإني لأذهب إلى إنك إن أردت أن ترجع كل آية أو نجم أو معقد في أيّ سورة من القرآن إلى شيْءٍ من سورة (أم الكتاب) لكان لك ذلك ، ولو أنا سعينا إلى إقامة مشروع علمي جادّ يقدم هذا للناس لكان عملاً جليلاً ولو أني استقبلت من

عمري ما استدبرت لجعلت ذلك من همومي ولحملت طلاب العلم إليه حمل إرشاد وتبيين وتسديد .

مُستَوَيَاتُ تجلِّي الجَلال وَالجَمَالِ فِي مَعانِي سُورَةِ (المَسَد) :

المعنى القرآنِيُّ في أيّ سُورة من سوره بل في أيّ آيةٍ من آياتِه قائمٌ مِن أمرين رئيسين لا يفترقان أبدًا .ولا تجدُ معنى قُرآنيًّا لأيِّ آيَةٍ إلاَّ وهذان قائمان فيه أوْ قُلْ هو قائمٌ منهما . لا يستقيمُ البَتَّةُ أن يَستنبط ناظرٌ في آية مِن آياتِ القرآنِ الكريم ـ لا أستثني ـ إلاّ وما يستنبطُه مِن المعني قائمٌ من هذين ، فهما عمادُ كلّ معنًى قرآني ، وإلاَّ كان هذا غيرَ جديرٍ البَتَّةَ بأن يُوصفَ بأنّه قُرآنيٌّ .

آيةُ قُرآنيّة أيّ مَعنًى فِي القُرآن أن يقُومَ من هذين الأمرين:

الأوّلُ : جلالُ الألوهيّة ورَهبُوتها .

والآخر : جَمالُ الرّبوبيّة . ورحمُوتها .

الأول : جلالُ الألوهيّة يقُيمُ المتلقّيَّ فِي مقام العُبودية الرّاهبة المُخبتة القانتة الخاشية .

وهذا المقامُ قد اتّسع في كتابِ الله سُبْحَانَه وَتعَالَى الحديثُ عنه والإغراءُ بِه ، والثَّناءُ على السَّاعين إليه والقائمين فيه .

وهذا المقامُ جديرٌ بالعبد أن يقدّمه وأن يُعليه على مقامِ الرَّجاء في مسيرِه ؛ لأنَّه ممَّا يُعينُه على التَّحاجزِ عن كلّ ما لا يُرضِي الله جلّ جلالُه ، وذلك التحاجزُ هو رأسُ ما يجبُ أن يُحقِّقه العبدُ .

تحقِيقُ هذا التَّحاجزُ أشدُّ على النَّفسِ ، ولا تصبرُ عليْه إلا نفسٌ فتيّة تعشقُ التحدّي . فهُو أحوجُ إلى حُسنِ الدُّربَةِ ، وحُسنِ المُصابَرةِ والمُثابرةِ والتَّواصِي بِه .

الخصِيصة الأولى تملأ القلبَ مهابة ورهبًا في مقامِه بيْن يدي الله تعالى وعطاء هذا ذو أثرٍ بالغٍ في حياة المسلم ووجود الأمَّةِ كلِّها ؛ لأنَّ حضُورَ جلالِ الألوهيّة في القلوب وظهورِه عليه يُحاجزُه عن أن ينشغلَ بغير ما يُرضِيه ، ويحاجزُ الجوارح عن أن يصدرَ عنها ما لا يُرضِيه ، فيسلمُ المرءُ ومَن حولَه مِن كلِّ ما يُبِيرُ أوْ يُضِيرُ ، فيتحقق للأمَّة سلامُها الاجتماعيُّ ، فتتفرغُ لتعميرِ الحياة بطاعةِ الله عَزّ وعَلا .

وشجرةُ الطَّاعةِ وارِفةُ الظِّلالِ ، تتَّسعُ لكلّ الخلائقِ ، ووافرةُ الثِّمارِ تشبعُ كلَّ الخلائق .

يقُول سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى : ﴿ **وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُواْ وَٱتَّقَوْاْ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُواْ فَأَخَذْنَٰهُم بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ** ﴾

(الأعراف:٩٦)

والآخر جمالُ الرُّبوبية :

وهذا يُقيمُ العبدَ في مقامِ الرّجاءِ واليقينِ بواسِع مَغفرتِهِ ورَحمتِه .

وإذا ما نظرنا في المعنَى القائمِ فِي سورة (المسد) ألفينا حضور الجلالِ والجمال فيه حضُورًا يتسم بأمرٍ مهمٍّ :

جلالُ الألوهيّة في معناها أظهرُ للقلبِ ، وأسرعُ وصولاً إليه ، كما لا يَخفَى عليك .

وجمالَ الرُّبوبيَّة في معناها وإن كان ذا خفاءٍ فإنّه ليتجلى للقلبِ البصيرِ :

جمالُ الرُّبوبيّة في معني هذه السورة لازمٌ من لوازمِ جلالِ الألوهية فيها ، فإن تبّ أبي لهب وهلاك محرضته هو في حقيقته بشرى لكلِّ صاحب دعوةِ حقٍّ . فمن ربوبيّة أهلِ الحقِّ والدّعاةِ إليه بلسان الحال من قبلِ لسانِ المقال أن يهلِك أعداءُ الحقِ ، وتبيدَ قوتهم ، وأن يريهم الله تعالى ذلك رأي العين .

ذلك أنَّ هذا يمنحهم فتوةً في الدّعوة والتَّمسّك بالحقّ ، فرؤية النّصر من عواملِ الثباتِ على الحقِّ ، والله عزّ وجلّ لا يدع المجاهدين بالحقِّ للحقِّ دون أن يذيقهم لذَّة ذلك ويُريهم ثمرة فعلهم في أنفسِهم أولاً ، ورأسُ ذلك الشّعور بمعيّة الله جَلّ جلالُه ، واستشعارُ العبدِ أنّ أوّل ثمارِ الإقبال أنَّ الله تعالى رضيه لأن يقُوم بدعوتِه ـ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ـ ، فأيُّ جمالٍ أعظمُ من أن تشعرَ بِنعمة اختيارِ اللهِ تعالى جدّه لك لتتولَّى الدَّعوة إليه ، ويشرحَ صدرَك إلَيْه . فسورةُ (المسد) حين نزلتْ وكان حالُ الدّعوة فِي سِياق المناهضةِ وقد حملت معنًى يعلُوه جلالُ الألوهِيّة وسُلطانها ، استشعرَتْ قلوبهم التي أشرقَ فيها الإيمان أن أعداءهم إلى زوال ، وأنَّ الإسلامَ ماضٍ في الأرض جميعِها ، ذلك أنَّ هلاك رأس العناد ومن أغرته بِه آيةٌ بينةٌ على أنّ كلّ مَن كان على نهجِه ونهجُها له التَّبّ والخُسران .

وهذا هو عينُ البُشرَى بالنَّصرِ ، ومن ثَم جاءت هذه السُّورةُ في نسقِ التّلاوةِ بعد سُورةِ النَّصرِ والفتحِ .

ومِن البيّن الّذي لا يَخفَى على طالبِ علم بكتابِ الله عزّ وجلّ أنّ السُّورة الآتية عقبَ سُورةٍ أخرَى إنّما تضيفُ إلى معناها من جنسهِ ، وتؤكده أيضًا ، فهي تحمل أمرين :

توكيد المعنَى السّابق .

وتأسيسُ معنًى آخر يضِيفُ إليه .

فسُورةُ (المَسد) تؤكّد معنى سورةِ النّصر والفتح ، وهذا من بحر جمالِ الرُّبوبيّة ، وتؤسّسُ لِنعمة هلاكِ أهلِ العناد وأعوانهم . وهذا من بحر جلالِ الألوهيّة . وهذه الحقيقةُ باقية ما بقيتِ الحياة ، فعلَى أهل الحقِّ والدُّعاةِ إليه أن يُقيموها في قلوبهم نورًا يَهدِي وعزمًا فتيًّا يحقّقُ الغَاياتِ وإن شَطّت .